

تفسير ابن كثير

وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ^ج وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ

يخبر تعالى نبيه ، صلوات الله عليه وسلامه أنه يعلم جميع أحواله وأحوال أمته ، وجميع

الخلائق في كل ساعة وأن ولحظة ، وأنه لا يعزب عن علمه وبصره مثقال ذرة في

حقارتها وصغرها في السماوات ولا في الأرض ، ولا أصغر منها ولا أكبر إلا في كتاب

مبين ، كقوله : (وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط

من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين

([الأنعام : 59] ، فأخبر تعالى أنه يعلم حركة الأشجار وغيرها من الجمادات وكذلك

الدواب السارحة في قوله : (وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم

أمثالكم ما فرطنا في الكتاب من شيء ثم إلى ربهم يحشرون) [الأنعام : 38] ، وقال

تعالى : (وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل في

كتاب مبین) [هود : 6] .وإذا كان هذا علمه بحركات هذه الأشياء ، فكيف بعلمه بحركات المكلفين المأمورين بالعبادة ، كما قال تعالى : (وتوكل على العزيز الرحيم الذي يراك حين تقوم وتقلبك في الساجدين) [الشعراء : 217 - 219] ، ؛ ولهذا قال تعالى : (وما تكون في شأن وما تتلو منه من قرآن ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهودا إذ تفيضون فيه) أي : إذ تأخذون في ذلك الشيء نحن مشاهدون لكم راءون سامعون ، ولهذا قال ، عليه السلام لما سأله جبريل عن الإحسان [قال] أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك " .